[illegible]

~~~~~~~~~~عفاف زقور*

اعتبرت قضية المرأة من أهم القضايا المطروحة من قبل مصلحي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نظرا للمكانة التي منحها إياها الدين الإسلامي، وكذلك استجابة لمقتضيات العصر التي شكلت هذه القضية محورا مهما من محاوره. وضّحت الجمعية وحددت مفهومها لرقي "المرأة المسلمة الجزائرية" الاجتماعي والثقافي وضرورته بحيث رأت أن: « *[...] المرأة من الأمة كالروح من الجسد؛ والراحة من اليد إذا صلحت صلحت الأمة كلها وإذا فسدت فسدت الأمة كلها[...]*»(1). وموضوع المرأة من المواضيع المسكوت عنها إلى حد ما من قبل القوى الدينية التقليدية بالجزائر والمتمثلة في الزوايا؛ وطرحه بإلحاح من قبل اتجاهات منافسة ذات الثقافة الفرنسية الاستعمارية في أغلب الأحيان اضطر الحركة الإصلاحية إلى اعتبار القضية من أولويات مواضيعها للحفاظ على بنية وشخصية المجتمع "المسلم الجزائري" من "الانحلال والتميع"؛ وبالتالي ارتبط هذا الموضوع في أغلب الأحيان بالمواضيع الأخلاقية ذات الصلة بالهوية المتميزة عن هوية المحتل.

لا يمكن تجاهل التأثيرات المتعددة الداخلية والخارجية على هذه المسألة كالطرح الثقافي-الاجتماعي ذو البعد السياسي للكتابات الصحفية(2) المرتبطة بالإدارة الفرنسية حول موضوع المرأة ونموذج رقيها، والمقالات التي تحدثت عن حالتها المأساوية، وقد شجّعت إدارة الاحتلال بعض الكتابات النسوية بالجزائر وبالتالي لوجهة استعمارية لهذا الموضوع. وقد عقد *المؤتمر الدولي لنساء البحر المتوسط* بقسنطينة من 29 إلى 31 مارس1931 وتأثيراته المحتملة على الطرح الإصلاحي خاصة لدى رئيس جمعية العلماء الشيخ بن باديس. ولا يمكن التغاضي كذلك عن التأثيرات الخارجية للتجربة التركية للحركة النسوية وما أثارته من جدل وكذا التجربة المصرية، والتغيرات الطارئة على طرح الموضوع بتونس وكتابات الطاهر حداد وما أثارته من جدل في تونس في حد ذاتها وردود فعل المصلحين بالجزائر على كل هذه التغييرات(3).

لاشك أننا إن تحدثنا عن الحركة الإصلاحية الدينية لما بين الحربين فإننا نشير بالدرجة الأولى إلى مؤسس *جمعية العلماء المسلمين الجزائريين* ورئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس. ولمعرفة وجهة نظره في هذا الموضوع لابد من معرفة التأثيرات المتزامنة مع كتاباته الشخصية المنشورة بمجلته الشهاب أو المقالات المنشورة في الصحف والمجلات العربية التي أعاد نشرها بمجلته. وبعد الإطلاع على هذا الرصيد الوثائقي تبرز أهم المسائل التي تطرح نفسها: ما المقصود برقي المرأة عند الشيخ عبد الحميد بن باديس؟ وما هي حدوده؟ و وما هي مجالاته؟ وما هي غايته؟ وما هي خلفيته المذهبية؟

1- تعليم المرأة وضرورته عند الشيخ بن باديس: أهي "ثورة" بأطر محدّدة؟

* أستاذة مساعدة (أ) قسم التاريخ جامعة الشلف
~~~~~~~~~~

يبدو أن قضية تعليم المرأة على صعيد الحركة الإصلاحية كان محل نقاش منذ ظهور المدرسة الحرة، وقد أشار إلى ذلك مبارك الميلي في مقال له تحت عنوان "تعليم المرأة الكتابة": «*[...] ولما أخذت حركة تأسيس المدارس، ظهرت مشكلة من يعمرها من النشء. فقال فريق نعمرها بالبنين والبنات، وقال آخرون بالبنين دون البنات، ولا يكاد يخلو مجلس من مجالس أركان الإصلاح التي يذكر فيها التعليم من الحديث في هذه النقطة[...]*»(4).

تبنت الحركة الإصلاحية قضية تعليم المرأة رغم تحفظ المجتمع. وقد ألحّ الشيخ بن باديس على ضرورته في مقال له تحت عنوان *"تعليم النساء الكتابة"*: «*[...] فاستنادا إلى هذه الأدلة، وسيرا على ما استفاض في تاريخ الأمة من العالمات الكاتبات الكثيرات، علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادنا في أحقاب التاريخ المتطاولة، وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا، والتي كانت لنا بين الأمم*»(5).

استند الشيخ بن باديس من أجل تدعيم رؤيته لضرورة تعليم المرأة إلى السيرة النبوية، فذكر ما رُوي عن أبي سعيد الخدري ـــرضي الله عنه ـــ: قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم: «*غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك*" فوعدهن يوما لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن. فكان فيما قال لهن: «*ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من نار*» *فقالت امرأة: واثنين، فقال: «واثنين»(6).* واستخلص الشيخ بعض الأحكام والفوائد من بينها أن: «*[...] النساء شقائق الرجال في التكليف، فمن الواجب تعليمهن وتعلّمهن وقد علّمهن الرسول ـــ صلى الله عليه واله وسلم ـــ وأقرّهن على طلب العلم، ولا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التعلم* وانتقد بن باديس وضعية النساء حينئذ بقوله: « *إن الجهالة التي فيها نساؤنا اليوم هي جهالة عمياء، وإن على أوليائهن المسؤولين إثما كبيرا فيما هنّ فيه. وإنّ أهل العلم والإرث النبوي مسؤولون عن الأمة، رجالها ونسائها، فعليهم أن يقوموا بهذا الواجب العظيم في حق النساء بتعليمهن خلف صفوف الرجال، وفي يوم خاص بهنّ اقتداء بالمعلم الأعظم: عليه وعلى آله الصلاة السلام».(7)*

واستند على حديث آخر، برواية أبي داوود، لتأكيد رؤيته: «[...] *عن الشفاء بنت عبد الله – قالت: دخل علي النبي ـــ صلى الله عليه و آله وسلم ـــ وأنا عند حفصة فقال لي: ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة*». والمعنى الذي استخلصه الشيخ حدده في النقاط التالية: «*[...] عرف ـــ صلى الله علي وآله وسلم ـــ* أن الشفاء كانت علمت حفصة الكتابة، وكانت الشفاء من عاقلات النساء وعارفاتهن، فدعاها إلى تعليم حفصة رقية النملة وحثّها عليها، ونشّطها لذلك لتذكيرها بتعليمها لها الكتابة، فمن كان من شأنه عمل من الأعمال خفّ عليه القيام به. مبيّنا لها بذلك أن تعليم هذه مثل تعليم تلك في النافع وفعل الخير»*](8)*

وحدّد رئيس جمعية العلماء بن باديس الأحكام والفوائد مما روي سابقا: « [...] *وفيه تعليم النساء الكتابة واستدل به على ذلك جماعة من الأئمة منهم الخطابي في شارح السن، وصاحب المنقى. وأقوى منه في الاستدلال العموميات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء، فإن مذهب الحق أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا بمخصص يخرجهن من نص أو إجماع أو بضرورة طبيعية. لأن النساء شقائق الرجال في التكليف ولا خلاف في أنه إذا اجتمع النساء والرجال ورد الخطاب أو الخبر مذكرا على طريقة التغليب[...]»(9).*

أثارت مسألة "ما يجب أن تتعلمه المرأة" جدلا أشد قوة من مسألة تعلمها. وانطلقت الحركة الإصلاحية من "مفهوم ديني سلفي" للنهوض بالمرأة ورفع الأمية عنها في إطار البيت وتربية الأولاد. ونشرت مجلة *الشهاب* في سنة 1937 إطارا لتعليم المرأة في نظر الحركة الإصلاحية، تحت عنوان "المرأة الجاهلة شر عظيم على المجتمع" فتساءلت عن ما ينبغي أن تتعلم؟ وأجابت بطريقة ترتيبية: «[...] الديانة، اللغة، القراءة والكتابة، إتقان حرفة يدوية، تربية الأولاد، والمعالجة الأولية لمختلف الأمراض،

شؤون المنزل، ثم الجغرافية والتاريخ والحساب»(10). ويجب الإشارة إلى تأثير الحركة النهضوية في العالم العربي على الحركة الإصلاحية الداعية إلى النهوض بالمرأة، ومطالب *مؤتمر طلبة شمال أفريقيا* الذي عقد *بنادي الترقي* عام 1932 ودعوته إلى تعليم المرأة(11).

2- المرأة "المسلمة الجزائرية" بين الوظيفة "الطبيعية-الاجتماعية" والهوية الوطنية:

طُلب من الشيخ بن باديس إلقاء محاضرة بنادي الترقي فاختار في أول الأمر موضوع المرأة وحالتها وواجباتها إلا أنه عدل عن الفكرة ليحوّلها إلى الرجل المسلم الجزائري موضحا الأسباب الاجتماعية لتغيير الموضوع: « [...] وبينما أنا أفكر فيها وأجمع أطراف الحديث في شأنها إذا أنا برجل مسلم جزائري ببرنوسه وقفّوره وقف [...] أمام خيالي، وأخذ [...] يخاطبني بشدة وعنجهية ويقول: أنتم تفكرون في تعليم المرأة فلمن تعلموها؟ لي أنا الرجل الجاهل ليقع لها ما يقع للعالم المغلوب من الجاهل القوي الغالب. ومن يعلّمها؟ أنا الجاهل ! كيف أترك نفسي وأعلّمها؟ [...] إذا أردتم التفكير الصحيح والإصلاح المنتج ففكروا فيّ قبلها، فأنا أبوها، وزوجها، ووليّها ومصدر خيرها وشرها»(12).

يستمر بن باديس في توضيح الوضعية الاجتماعية وتأثيرها على تحسين وضعية المرأة: «*[...] أمام هذا الرجل الخيالي المرعب وحججه الدامغة ما وسعني إلا العدول عن التفكير في المرأة إلى التفكير بالرجل فاخترت موضوع المقالة "الرجل المسلم الجزائري" والذي [...] هو رئيس البيت، و"الرجال قوّامون على النساء؛ فعليه واجب الرعاية: بالسعي والتكسّب، وبالتهذيب والتعليم للزوجة، للأبناء، للبنات[...] فهو السيد في بيته ليكون سيدا في قومه. والسيادة الحقيقة إنما هي بالنفع والعمل المنتج. فسيد البيت هو الأكثر عملا والأجلب نفعا له». وعنايته التي آلها للرجل« [...] تستلزم العناية بالمرأة شقيقته في الخلقة والتكليف وشريكته في البيت والحياة. هما زوجان متلازمان لا تكمل الوحدة البشرية إلا بكمالهما. وما الوحدة البشرية في ضرورية الزوجين لتكوينها إلا كسائر المخلوقات الساري عليهما قانون الزوجية العام. ويبتدئ ذلك في أصغر جزء وأول مادة للتكوين*»(13).

قسّم الشيخ بن باديس المراتب الاجتماعية بين الرجل والمرأة : «*[...] هو الأول وهي الثانية: هما ــ على ما بينهما من هذا التشارك والتلازم والاتصال ــ فإنه هو المقدّم عليها، والقيوم على شأنها، والمسؤول عن إنهاضها. تشهد بهذا الفطرة الظاهرة في ضعف خلقها، والتاريخ البشري بما فيه من مدنيات قديمة وحديثة كلها قامت على كواهل الرجال*»(14). وقد خلقت المرأة حسب قول بن باديس: « *[...] لحفظ النسل، وتربية الإنسان في أضعف أطواره [...] فهي ربة البيت وراعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به. فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها، ونربيها على الأخلاق النسوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة. فالتي تلد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها.[...] فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها من طريق الدين ما لها وما عليها ونفقّهها*»(15).

ونشرت مجلة الشهاب مقالا تحت عنوان "الفتاة أو المرأة الجزائرية وما لها من حقوق على الرجل وماله نحو نفسه في الحالة الراهنة" وأمضاه "كاتب كبير" دون ذكر اسمه حيث جاء فيه: «*[...] إذا قلنا أن الرجل والمرأة في نظر الإسلام هما الإنسان[...] فإننا نقرر حقيقة من الحقائق التي حملت عصور الإنسانية والهوى على محوها ومحقها حينا[...] بيد أن تقرير هذه الحقيقة الوضاءة لا يقضي بالتساوي بين الرجل والمرأة في جميع الخصائص والأعمال، كما لا تقضي بذلك الحقائق العلمية. اعتمادا على ما فيها من الفروق والاختلافات بين الرجل والمرأة من الوجهة التشريحية وخواص علم الفيزيولوجية [...] فوظيفة الرجل أو الذكر [...] يباشر الأعمال الشاقة [...] والمرأة[...] وظيفتها التي هي في مصاف الأعمال الأساسية في الحياة الاجتماعية هي أن تكون أما وربة دار ومدبرة فنية داخل المنزل عن جدارة ودراية. [...]إننا نجتزئ (كذا) من المرأة الجزائرية في الحالة الراهنة بشيء واحد، ألا وهو إعدادها لكي تكون أما ذات ثقافة دينية، وذلك بإنارة ذهنها إنارة صحيحة، وتعليمها*

ما هو من مهامها دينيا ومنزليا تعليما متماشيا مع الحشمة والعفاف والصيانة لتعد لما تبذل من العناية والسهر على صحة فلذات الأكباد وتربيتهم نسلا صالحا[...](16).

وربط الشيخ بن باديس بين ما سماه الوظيفة "الطبيعية-الاجتماعية" والهوية الوطنية وحمّل حفظ هذه الخاصية للمرأة: «*[...] الجزائرية بدينها ولغتها وقوميتها [...] علينا أن نعرفها حقائق ذلك لتلد أولادا منا ولنا، يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية، ولا ينكرون أصلهم وإن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر لهم الناس أجمعون*»(17). وجعل الطريق الموصل إلى هذا: «*[...] هو التعليم: تعليم البنات تعليما يناسب خلقتهنّ ودينهنّ وقوميتهنّ، فالجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا ـــ عليهن الرحمة ـــ خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها*»(18).

وحاول بن باديس وضع نموذج "خير النساء" وربط ذلك بـــ"دورهن الطبيعي- الاجتماعي" حيث استند على حديث رواه أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ خطب أم هانئ بنت أبي طالب فقالت: يا رسول الله أني قد كبرت ولي عيال. فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ: « *خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده*»(19). وفسّر الشيخ بن باديس سبب تفضيل هؤلاء النسوة أي نساء قريش ذلك لجمعهن بين: «[...] *الرأفة بالولد والشفقة عليه والعناية به في تربيته حتى يتركن التزوج من أجل التفرغ للقيام به، وحفظهن للمال وحسن التدبير فيه والأمانة عليه. فيكفين الزوج أعز شيء لديه وهو ماله وولده اللذان بهما حسن حاله وبقاء أثره[...]*»(20).

جرت العادة على تحبيب تزوّج الرجل بعد الترمّل في حين أن الشيخ بن باديس شجع الأمر العكسي بالنسبة للمرأة حيث ذكر: «*[...] لا تستطيع ترك التزوج بعد تأيمها للتفرّغ لتربية أولادها إلا الأرملة الكاملة العفاف الشديدة الرأفة التي أنساها حبها في أولادها والشفقة عليهم داعية النفس إلى الزواج وما استطاعت ذلك إلا بما عندها من ملكة العفاف فوصفها بأنها حانية يستلزم أنها عفيفة*»(21).

والإرشاد الذي استنتجه الشيخ بن باديس من الحديث النبوي السابق الذكر هو تحديد: «*[...] ما خلقت له المرأة من العمل العظيم في الحياة ويرشدنا بذلك لوجوب القيام عليها وتهيئتها لذلك بالتربية فتكون تربيتنا وتعليمنا بما يقوي فيها هذه الصفات: العفة وحسن تدبير المنزل والنفقة فيه، والشفقة على الولد وحسن تربيته، وكل زيادة على هذه ـــ بعد تهذيب أخلاقها وتصحيح دينها وتحبيبها في قومها ـــ فهي ضارة بها ومخرجة لها عن مهمتها العظيمة ملحقة الضرر بقومها فلنجعل هذا الحديث الشريف دليلنا ومرشدنا في كل ما نسعى إليه من تعليم النساء والبنات*». ومن واجب الرجل: «*[...] أن يتخير من معادن النساء في بيوتهن وأقوامهن فإن الأخلاق تتوارث والبنات متأثرات بالأمهات في الغالب*»(22).

3- بن باديس وصورة المرأة الحديثة: بين الدفاع والهجوم

انتقد بن باديس نداءات تحديث دور المرأة "الاجتماعي" ورآه إخلالا بدورها "الطبيعي"، وانطلق انطلاقة دينية معتمدا على بعض الأحاديث النبوية عندما كتب عن الكمال الإنساني وانحصاره في أغلب الأحيان في الرجال. واستند عمّا رواه أبي موس الأشعري رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم ـــ: « *كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام*»(23).

وفسّر حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بإرادته في توضيح دور المرأة استنادا إلى "قدراتها الطبيعية": «*[...] فأراد النبي ـــ صلى الله عليه واله وسلم ـــ أن يعرّفنا بهذا الضعف في جنس المرأة حتى لا نعدو بها ما خلقت من وظيفة القسم الداخلي من الحياة فنظلمها ونظلم الحياة، وأراد أن يدلنا على ضعفها بدليل تاريخي مشاهد للأجيال، فذكر لنا تخلفها عن*

الرجل في بلوغ ذروة الكمال [...] وذكر فضل عائشة على نساء وقتها [...] ليجمع بين الحديث عن الأمم الماضية وأمته ويدل على استمرار الكمال في النساء مثل استمراره في الرجل كل بما قدر ويسر له». والاقتداء الذي حرص على توضيحه بن باديس أن: « *هؤلاء السيدات الكاملات كلهن قد كملن في الدين فمنهنّ أم نبي ومنهنّ زوجة نبي ومنهنّ منقذة نبي* »(24).

واعتبر «*[...] الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم وقوة الإرادة وقوة العمل [...] والمرأة لما خلقت لقسم الحياة الداخلي أعطيت من القوى الثلاث القدر الذي تحتاج إليه منها وهو دون ما يحتاج إليه الرجل الذي خلق للقيام بقسم الحياة الخارجي فكانت بخلقتها أضعف منه في العلم والإرادة والعمل فكانت لذلك دونه في الكمال، وتقسيم الحياة إلى قسيمها ضروري للبقاء النسل وحفظه وتقسيم وظيفة الحياة بين الرجل والمرأة [...]. ونحن نرى اليوم المرأة في المدنية الغربية ومقلديها لما خيّل إليها أنها قوية مثل الرجل هجرت وظيفتها أو أهملتها وخرجت تزاحم الرجل في وظيفته فأضرّت بالقسم الداخلي من الحياة بإهماله واضطرابه وأضرت بالقسم الخارجي بمزاحمة الرجل وزحزحة قسم كبير منهم عن العمل وتعريضه للفتن [...]*»(25).

وانتقد انتقادا لاذعا الشيخ الطاهر حداد ورؤيته لتحديث المرأة في كتابه "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" وذكر علاقته به وأوجه اختلافه معه: «*[...] كان صاحب هذا الكتاب حدثنا عنه أيام إقامتنا بتونس بالصيف الماضية، ففهمنا من حديثه أنه يتكلم فيه عن النهوض بالمرأة نهوضا صحيحا وتعليمها تعليما مفيدا في حدود إسلامها التي هي بنظر كل عاقل منصف حدود الإنسانية الكاملة. وما توقعنا منه أنه يكون ممن يدعون إلى الذهاب بها في تيار المدنية الغربية التي تخرجها عن حدود دينها ووظيفة أنوثتها. فإذا بنا لما أهدي لنا كتابه وطالعناه وجدنا ما هو أدهى من ذلك وأمر. وجدناه يدعو إلى إبطال أحكام عديدة من أحكام القرآن الصريحة القطعية الاجتماعية، وتعطيل آيات عديدة من آياته بدعوى أنها غير لائقة بالنساء في هذا العصر. وهذا هو الجحود نفسه لبعض القرآن، وجحود بعضه كجحود كله في مفارقة الإسلام [...] نحن لا نخشى على المسلمين من دعوته شيئا لأنه من المعلوم الضروري عندهم أن جحود شيء من القرآن كفر به، وإنما نخشى عليه هو أن يستمر على عقيدته فيكون من الهالكين*»(26).

ونشرت مجلة الشهاب مقالا لمحمد الصالح بن مراد تحت عنوان "الحداد على امرأة الحدّاد" استمرارا لانتقاد هذه الدعوة ومما جاء فيه: «[...] التعجب من كتاب الحداد "الذي كله ضلالات وجهالات وافتراءات وهجمات على الإسلام فتعجب الناس أن يصدر هذا من متخرج من جامع الزيتونة، فكنا نقول لهم أن هذا ليس من أثار الجامع وإنما هو من أثار ما وراء جدران الجامع [...] وأخبرني الأخ الأستاذ مبارك الميلي المدرس ببلدة الأغواط بأن النسخة الوحيدة من كتاب امرأة الحداد التي جاءت إلى الأغواط جاءت إلى الآباء البيض هنالك فحصل اليقين [...]»(27).

4- قضايا المرأة المطروحة في كتابات الشيخ بن باديس

عالج الشيخ بن باديس في كتاباته عدة مسائل متعلقة بالمرأة ويبدو أنها مثار للجدل إلي يومنا هذا، فقضايا المرأة حصرت في الزينة والفتنة وآيات الستر لا غير.

أ. تفسير آيات الزينة والستر

رد الشيخ بن باديس بمجلة الشهاب على حوار أو فتوى للشيخ أحمد بن يوسف، المفتي الحنفي بمدينة تونس، نشرته جريدة *اللواء التونسي* وأعادت نشره جريدة *الزهراء*، ووضّح أوجه الاختلاف معه فيما يلي:

«*[...] ظاهر من مساق تلاوة الأستاذ للآية "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهنّ(28)" أن يستشهد بها على وجوب ستر الوجه. وظاهر من السؤال أنه عن المراد بلفظ الزينة من : "ولا يبدين زينتهن" وظاهر من الجواب أنه عرّف الزينة بالوجه في قوله "زينتهن" . [...] والصواب: أن الذي فسر بالوجه والكفين ـــ لا*

بالوجه فقط ــ هو لفظة "ما" في قوله "إلا ما ظهر منها" وهي واقعة على الزينة الظاهرة. [...] فبان بهذا بطلان تفسير الأستاذ الزينة من "زينتهن" بالوجه، وبطلان استدلاله بالآية على وجوب ستره، إذ هي بالعكس دالة على جواز إبدائه بحكم الاستثناء الصريح. ونرى أن نزيد المقام تقريرا وتوضيحا ما ننقله على إمامين كبيرين في الحديث والفتوى: الإمام الجصاص الحنفي والقاضي عياض المالكي. *ثم عن إمام دار الهجرة[...] فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من أن الوجه والكفين ليسا بعورة وأنه لا يجب على المرأة سترهما. [...]*»(29).

ب. ستر الوجه من الدين على ما فيه من تفصيل:

اعتبر الشيخ بن باديس ستر وجه المرأة ليس واجبا إنما هو رهين للعادة الاجتماعية من جهة، وللحفاظ على المجتمع إن خشي عليه من الفتنة من جهة أخرى:

«*[...] نص أكثر الفقهاء المتأخرين مع جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها إذا خشيت منها الفتنة، وهذا حكم عارض معلل بهذه العلة فيدور معها وجودا وعدما. ولذا لما كنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى ــ وحالتنا هي حالتنا ــ لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال. ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهنّ من فتنة لما سئلنا عن سفورهن أجبنا بتركهن على حالهن أخذا بأصل الجواز*»(30).

واستند على حديث الخثعمية لتوضيح وجوب ستر الوجه بشروط: «عن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصرف وجه الفضل إلى الشق الأخر». واعتبر الشيخ بن باديس هذا الحديث «*[...] دليل على مراعاة الفتنة، وسد ذريعتها، وفي عدم أمره للمرأة بستر وجهها دليل على جواز ذلك لها، وهذا بناء على أنها كانت مكشوفة الوجه، كما هو الظاهر من نظر الفضل إليها، ومن خوف الفتنة وهو الذي فهمه أكثر الناس، وان احتمل أن تكون مستورة الوجه بما أسدلته من رأسها كما قاله ابن العربي[...]اليوم أقوام ــمعظمهم من غير أهل المدن والقرى ــ ألفوا خروج نساءهم سافرات فلا يلفتن أنظارهم بذلك، فهؤلاء لا يطالبن بستر الوجوه مع بقاء حكم غض البصر وحرمة تجديد النظر، ومن المسلمين أقوام ــ معظمهم من أهل المدن والقرى ــ ألفوا ستر وجوه النساء فكشف المرأة بينهم وجهها يلفت الأنظار إليها، ويغري أهل الفساد بها، ويفتح بابا للقال والقيل في شأنها، وشأن أهلها، وعشيرتها، فهؤلاء يجب عليهن ستر وجوههن، اتقاء للشر والفتنة والوقيعة في الأعراض*»(31).

ولم يفت الشيخ بن باديس أن يميّز بين ما سماه بالسفور الإسلامي وبين دعوة بعض التيارات المعاصرة لتخلص المرأة من حجابها حيث ذكر فيما سماه "تفرقة وتحذير" ما يلي: «*[...]هنا سفور إسلامي وهو كشف المرأة وجهها ــ دون شعرها وعنقها ــ عند أمن الفتنة، مع عدم إظهار الزينة، غير الوجه والكفين، وعدم إثارة الفتنة بروائح الطيب وخشخشة الحلي ورنين الخلخال. وهناك سفور افرنجي فيه كشف للشعر والعنق والأطراف مع التبرج بالزينة وما إليها، فعلينا ــ معشر المسلمين ــ أن نوجه قوتنا كلها إلى منع السفور الافرنجي الذي طغى حتى على نساء أمراء الشرق المسلمين ووزرائه، وأن نحذر كل ما يؤدي إليه وأن نحافظ على الوضعية الإسلامية العفيفة الطاهرة بسفورها ــ إذا كان سفورا على ما فصلناه ــ في دائرة محدودة ليس فيها إثارة ولا إغراء[...]*»(32).

ج. في معنى الإدلاء بالجلابيب

بعد الإشارة إلى اختلاف المفسرين من السلف رجح بن باديس هذا التفسير للآية الشهيرة: « *يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما*»(33). حيث اعتبر قوله تعالى: «*[...]ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين*»، يفيد علة طلب الإدناء هي تمييزهن عن الإماء اللاتي كنّ يمشين حاسرات

أو بقناع مفرد فيتعرض لهن أهل الشطارة والسفهاء. وفي الإدناء على الوجه الثاني في الآية تحصيل لهذا المقصود من التمييز، فحملها عليه مناسب للعلة وسالم من المعارضة فهو المختار. [...]وبهذا التقرير تكون كل أية مفيدة معنى غير الذي أفادته الأخرى، فآية الإبداء أفادت طلب ستر الأعضاء إلا الوجه والكفين، وأية الإدناء أفادت طلب الستر الأعلى الذي يحيط بالثياب ويعم الرأس وما والاه من الوجه وهو الجبين وينضم على البدن، ليحصل به تمييز الحرائر بالمبالغة في التستر والاحتشام. وهذا هو المناسب لجوامع كلم القران والله أعلم»(34).

د. خروج النساء إلى المساجد:

شرح الشيخ بن باديس الذي رواه مسلم في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر أن: «*عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال: سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول: لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنوكم إليها. قال: فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعهنّ. قال: فأقبل عليه عبد الله فسبّه سبّا سيئا ما سمعته سبّه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ وتقول: والله لنمنعهنّ*". واستند على أنه: «*[...] صح من السنة العملية والسنة القولية خروج النساء إلى المساجد وحضورهن مشاهد الخير، وثبت نهي الرجال عن منعهن من ذلك، ومنه ما في هذا الحديث. وعليهن قبل الخروج أن يستأذن الرجال كما هو مقتضى قوله إذا استأذنكم إليها، كما ثبت أيضا نهيهن عن مس الطيب إذا أردن الخروج وعليهن لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وان يضربن بخمرهن على جيوبهن وأن يدنين عليهن من جلابيبهن وهي ما يجعل فوق الثياب كلها الملاءة ونحوها وأن لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتيهن فلا يسمع منها خشخشة الحلي ولا رنين الخلخال. وأن يمشين في حافة الطريق ولا يحققن الطريق، أي لا يمشين في وسطه وهذه كلها مأخوذة من الآيات والأحاديث في هذا الباب ولما سمع بلال بن عبد عبد الله أباه يحدث بهذا الحديث عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قابله بالرد وقال والله لنمنعهن فغضب أبوه عضبا شديدا وسبّه وشتمه سبّا سيئا مقابلا لقوله السيئ ومقابلاته للحديث النبوي بالمعارضة*»(35).

ورأى أن القول المثبت عن عائشة: «*[...] لو أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل، وهذا لا يعارض ما تقدم، لأن الذي أحدثه هو الطيب والزينة وهو نهي عن منعهن، ونهاهن عن مس الطيب عند إرادة الخروج فلو رأى ما أحدثن لمنعهن لإخلالهن بالشرط حتى يلتزمنه ولا يمنعهن منعا يكون إبطالا لنهيه الأول عن منعهن*»(36).

ه. تحريم الخلوة بالأجنبية خصوصا على الأقارب:

حاول الشيخ بن باديس وضع حدود أخلاقية للعلاقات الاجتماعية من خلال تفسير حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر:«*أن رسول الله ــصلى الله عليه وسلم ــ قال إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت*».

وحدد معنى الحديث بما يأتي: «*حذر الرسول عليه وآله الصلاة والسلام الرجال من الدخول على النساء، وكانوا يتساهلون في الدخول على نساء أقاربهم، فسأل هذا الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ عن أقارب الزوج، فأجابه ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ بأن الخوف منه أكثر والشر منه أقرب والفتنة به أشد، ولأنه متمكن الدخول إلى بيت أخيه دون إنكار عليه، فيتوصل إلى المرأة ويخلو بها دون كلفة ولا مراقبة، بخلاف الأجنبي فهو بعيد عن الدار ينكر عليه دخولها ويخشى من مراقبة أهلها [...]*»(37).

5- خلق نموذج الاقتداء: بين واقع محدود وأفق الرحب

خصص الشيخ بن باديس ركنا ثابتا في مجلة الشهاب يشير إلى المرأة في صدر الإسلام تحت عنوان "رجال السلف ونساؤه" بالاستناد إلى الأحاديث النبوية واستخلاص الأسوة منها، وأول حلقة من هذا الباب نشرت في ج1 م 10 في شهر جانفي 1934(38). وقد وضّح في افتتاحيته هدفه والغاية منه: «*هذا الباب فتحناه في (الشهاب) أردنا منه أن يطلع القراء على تراجم بعض رجالنا ونسائنا من سلفنا الصالح وما لهم من صفات أكسبهم الإسلام وما كان منهم من أعمال في سبيله، ففي ذلك ما يثّبت القلوب ويعين على التهذيب، وبعث على القدوة، وينفخ روح الحياة وما يحي خلف إلا بحياة سلف، وما حياة السلف إلا بحياة تاريخهم ودوام ذكرهم ولسنا لتتبع الأخبار واستيعاب الحوادث وإنما نقتصر على ما يحصل أصل القصد، ويفي لأكثر القراء بالغرض، ويبعثهم همم الطلاب إلى التوسل في هذا العلم، ويبعث رغبتهم في الازدياد منه، وليس هذا الباب مقصورا على قلم تحرير المجلة فكل كاتب أن يعرض فيه ما عده من حديث عن رجل أو امرأة من أبناء أو بنات الإسلام[...]*»(39).

النماذج الممنوحة من طرف بن باديس في هذا الركن أقل ما يقال عنها أن هؤلاء النسوة خرجن عن دور المرأة "*الطبيعي-الاجتماعي*" وإطاره الذي حدده. بحيث ذكر نموذج أم حرام بنت ملحان التي «*خرجت مع زوجها وركبت البحر في زمان معاوية للغزو*»، وسمية بنت خباط، وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام. وذكّر بفضل النساء في الإسلام: «*[...] أنظر إلى حظ المرأة في السبق إلى تأييد الإسلام بالنفس والمال، والعطف والحنان، فأول مال وجده رسول الإسلام ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ هو مال خديجة، وأول عطف لقيه، وأول قلب انفتح لسماع كلمة النبوة ــ كما في حديث بدء الوحي ــ هو عطف خديجة وقلب خديجة، وأول شهيدة في الإسلام ــ كما اتفق عليه علماء السيرة ــ هو سمية. فلن ينهض المسلمون نهضة حقيقة إسلامية إلا إذا شاركهم المسلمات في نهضتهم في نطاق عملهن الذي حدده الإسلام وعلى ما فرضه عليهن من صون واحتشام(40)*». الخنساء وبنوها، و أثر الإسلام في النفوس(41)، والشفاء بنت عبد الله القريشية العدوية التي «*تولت أمر السوق في بعض الأحيان، ولا شك أن مما أهلها لذلك عند عمر معرفتها بالكتابة*»(42).

وعلينا أن نتساءل عما يقصده الشيخ بن باديس أو ما هي غايته من منح هذه النماذج التي خرقت النموذج التقليدي للمرأة الذي حدده مسبقا في "*الإطار الاجتماعي*"، وحصر مجال تثقيفها وغايته التي تندرج في إطار بناء أم لانجاز "*وظيفتها الطبيعية*" داخل الأسرة ؟

الهوامش:

[1] البصائر، العدد 04، 21 فيفري 1936.

[2] La Voix des Humbles و La Voix Indigène

[3] Merad Ali, Le Réformisme Musulman en Algérie de 1925 à1940. Essai d'histoire religieuse et sociale, 2eme Edition ; El Hikma, Alger 1999. pp 269-279.

[4] الشهاب، ج6 م12 ، أوت 1936، عن حرفي صالح، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 172-173.

[5] *الشهاب*، ج3 م15، أفريل 1939، حرفي، نفسه.

[6] رواه البخاري، صحيح البخاري، دار المعرفة 1978، جزء 1، ص 30.

[7] الشهاب، ج2، م15، ص 64ــ 66، صفر 1358 هــ مارس 1939.

[8] الشهاب، ج 3، م15، غرة ربيع الأول 1358ــ أفريل 1939، ص 110ــ112.

[9] نفسه. الشفاء بنت عبد الله بنت شمس بن خلف العدوية، أسلمت قبل الهجرة، فهي من المهاجرات الأوائل، منحها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دارا بالحكاكين؛ فكانت نساء المدينة يتعلمن منها الكتابة؛ فكانت دارها أول مدرسة بالمدينة. (بسام محمد حمامي: نساء حول الرسول صلى الله عليه وسلم، طبعة 1 دمشق 1993).

(*) رقية النمل هي من ضمن ثلاث رقى لم ينه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنها، والنملة هي قروح االمظهر بالجنب.

[10] الشهاب، ج11، م12، جانفي 1937. خرفي، نفسه، ص174.

[11] خرفي، نفسه.

[12] أثار بن باديس، ج3، إعداد وتصنيف عمار طالبي، الشركة الجزائرية 1997، ص 465ـــ470

[13] نفسه

[14] الشهاب، ج10، المجلد 5، ص 9ـــ14 , غرة جمادى الثانية 1348هـــــ نوفمبر 1929.

[15] نفسه

[16] الشهاب ج3 م7 مارس 1931.

[17]الشهاب، ج10، المجلد 5، ص 9ـــ14 , غرة جمادى الثانية 1348هـــــ نوفمبر 1929

[18] نفسه

[19] رواه مسلم

[20] الشهاب، ج9، م11، ص 496ـــ498. رمضان 1354 هـــ ـــ ديسمبر 1935.

[21] نفسه

[22] نفسه

[23] رواه البخاري : الصحيح، نفسه جزء 3 ص 240.

[24] الشهاب: ج6، م11، ص 346ـــ348. جمادى الثانية 1354 هـــ ـــ 1935.

[25] نفسه

[26] الشهاب، ج 11 / م 6, غرة رجب 1349 هـــ ديسمبر 1930

[27] الشهاب ج 8 م8 أوت، 1932، ص.490

[28] سورة الأحزاب، الآية 59.

[29] أثار بن باديس، ج2، المرجع السابق

[30] الشهاب: ج1، م13، ص 5ـــ8. غرة محرم 1356 ÷ـــ ـــ 14 مارس1937.

[31] نفسه.

[32] نفسه.

[33] سورة الأحزاب، الآية 59

[34] الشهاب، ج3، م5، ص 19ـــ21، غرة ذي القعدة 1347هـــ ـــ أفريل 1929

[35] الشهاب، ج5، م8، ص 250 ـــ 252. غرة محرم 1351 هـــ ـــ ماي .1932

[36] نفسه.

[37] الشهاب: ج9، م8، ص 459ـــ 460, غرة جمادى الأولى 1351 هـــ سبتمبر 1932,

[38] خرفي، نفسه.

[39] الشهاب: ج1، م10، ص 14ـــ16, غرة رمضان 1352 هـــ ـــ جانفي .1934

[40] الشهاب، ج 2، م 13، ص 125ـــ126. غرة شعبان 1356 هـــ ـــ ماي .1937

[41] الشهاب، ج2، م5، ص 22ـــ 24, غرة شوال 1347 هـــ ـــ مارس .1929

[42] الشهاب، ج 4، م 15، ص 168 ـــ 169. غرة ربيع الثاني 1358 هـــ ـــ ماي 1939